العرب والقرآن

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

[الإسراء: ٨٨]

قلت متبسماً: قد افتقدت عنادك ومشاغباتك وصخورك.

قال: سبقتني! فقد كنت أوشك أن أقول: افتقدت ألغازك وأحجياتك.

قلت: قد طالت غيبتك حتى ظننت أنك اكتفيت ولن تأتى.

قال: لا أكتمك أنى قد تركتك المرة الماضية وأنا مشغول العقل مشتت الفكر قلق النفس.

قلت: ارفق بنفسك وقل لى: ما الذى شغل عقلك وشتت فكرك وأقلق نفسك هكذا؟

قال: ما زلت منذ تركتك أتفكر فى الأمر وأقلبه من جميع جوانبه فأجد ما وصلنا إليه معقولاً.

قلت: عظيم! فإن ذلك أدعى لأن يستريح عقلك وتقر نفسك ويهدأ بالك.

قال: ورغم ذلك ظللت أحس أن هناك شيئاً خافتاً يقلقنى ويجعلنى مشتتاً بلا قرار. وقد مكثت من الليالى عدداً أتطلع للسماء وأستعيد ما دار بينى وبينك، وظللت من الأيام طويلاً أقلب الكتب وأوازن إلى أن اهتديت أخيراً إلى ما سلبنى القرار وما جعلنى أحس بعدم الراحة والاطمئنان.

قلت: فإن معرفة المشكلة هو نصف حلها. فما الذى اهتديت إليه؟

قال: أليس القرآن لم يكن نابعاً من النبى كما تقول ولم يأت به من نفسه؟

قلت: بلى!

قال: وهو أيضاً لم يأت به من كتب الأمم السابقة، ولا من علمائها وأحبارها ورهبانها؟

قلت: وهذه أيضا بلى!

قال: فإن ما أرقنى غامضاً خافتاً كالشرر تحت الرماد ثم لم يلبث أن ثار واشتعل فى نفسى لهيباً لا يخبو هو أن الأمر ما زال ناقصاً لم يكتمل.

قلت : أى أمر وأى نقصان؟

قال : إن كونى لا أستطيع الوصول إلى مصدر القرآن لا يعنى أنه كلام الله . فذلك شئ تنازعنى فيه نفسى ولا يكتفى به عقلى .

قلت : فما الذى يكفيك إذاً وتطمئن إليه نفسك؟

قال : لا تطمئن نفسى إلا ببرهان لا يقبل الشك يثبت لى نسب القرآن إلى الله، برهان إيجابى يثبت المصدر الإلهى للقرآن، لا مجرد برهان سلبى ينفى عنه المصادر البشرية .

قلت : فإن هذا يقتضى أن يكون حديثنا فى إعجاز القرآن ومعجزاته . فهل أنت متأهب لهذا الحديث؟

قال : وهل أسهدنى وسلبنى النوم إلا هذا التأهب؟

قلت : فلنبدأ بتعريف المعجزة ما هى لنعرف ما نريد .

وما إن انتهيت من جملتى حتى انطلق يهز رأسه يميناً ويساراً وكأنه يردد نشيداً من محفوظات المدارس : المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يدى مدعى النبوة وفق مراده تصديقاً له فى دعواه مع عجز جميع المكلفين عن المعارضة .

ابتسمت قائلاً : إن هذه لعلامة طيبة . فها قد عادت نفسك إلى القرار وعدت معها إلى المشاغبة والعناد .

قال : إذا كنت ستنطلق فى أمثال هذه القوالب الصماء فلا فائدة فى المقال ولا أمل فى القرار .

قلت : وعدت أيضاً إلى صخبك! ها أنت تسترد عافيتك شيئاً فشيئاً .

دعك من هذه التعريفات وقل لى : ماذا تريد من المعجزة لتكون معجزة ولكى يكون لك بها الدليل الذى تريد؟

قال : أن تقصر قدرة البشر جميعاً عن محاكاتها والإتيان بمثلها مع رغبتهم

الشديدة ومحاولتهم الدؤوب، وأن لا يزيدها الزمان والأيام إلا قوة ولا يزيدهم إلا ضعفاً وقصوراً.

قلت: فذلك لك. فدعنا نبدأ بأيسر الأمور وأبينها وهو أثر القرآن فى العرب.

فقل لى: ما رسالة العرب قبل نزول القرآن فيهم؟

قال: رسالة! أى رسالة؟! وهل كانوا إلا قبائل بادية فى غالبهم لا يعرفون فلاحة ولا ملاحة؟ وإنما يتتبعون الكلأ والعشب يطعمون ماشيتهم ثم يطعمون هم منها، ومن لم يجد كلأً ولا ماشية أكل الضب واليرابيع.

وهمة الهمام فيهم أن يغير فيسلب وينهب، ثم تدور عليه الدائرة فيُسلب ويُنهب وهلم جرا.

قلت: إن رأيك فيهم لشديد السوء وكأنهم أعداؤك!.

قال: وإنك لتدافع عنهم وكأنهم أحبابك! فهل قلت إلا ما ذكره التاريخ، بل أدنى مما ذكره؟ وهل ثمة بعد الإغارة على الأخ سوء؟ أليس شاعرهم يفخر بقومه حين يفخر فيقول:

أغرن من الضباب على حلال وضبة إنه من حان حانا

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

أفترى الذى لم يجد ما يغير عليه فأغار على أخيه يرجى فى خير أو فلاح؟

قلت: قد كفيتنى مؤونة البحث وعناء الإقناع. فإن هذه لهى معجزة القرآن فيهم.

قال: أى معجزة؟! وما علاقة القرآن بالسلب والنهب؟!

قلت: تأمل دون أن تقلب التاريخ وتجعل رأسه على الأرض وقدميه فى السماء. هؤلاء البداة الجفاة الذين يعيشون على الإغارة والسلب والنهب كما تقول أنت، وهم إذا تغلبوا على وطن أسرع إليه الخراب كما يقول ابن خلدون،

فخربوا مبانيه لينصبوا بها أثافى القدر، ونزعوا سقفه ليعمروا بها خيامهم. فقل لى: لو هبطت بك آلة الزمن فى زمن هؤلاء أكنت ترى شيئاً يمكن أن يجمعهم أو يوحدهم أو يغير من نفوسهم الهائجة التى لا تعرف حداً ولا نظاماً إلا ما تسلب به وتنهب؟

قال: حقيقة لا أعرف شيئاً يمكن أن يجمعهم وهم إنما كانوا كذرات الرمال المتطايرة فى الريح لا يجمعها إلا تشتتها إلا أن يكون هذا الشئ عجيبة من عجائب الدهر.

قلت: أو من معجزاته.

قال مبتسماً: عدت لاستدراجى وحياكة الشباك حولى.

قلت: تعرف إنى لأحسك تدفعنى إلى هذا الإستدراج من طرف خفى وتعطينى الخيط لأحيك الشباك. وما أراك إلا راغباً فيها مستمتعاً بها رغم عنادك هذا الذى تصطنعه.

وقبل أن أتم جملتى أخرج منديلاً من جيبه ثم وضع وجهه فيه وكأنه يعطس ثم قال: فما زلت لا أفهم أين هى المعجزة؟

قلت: أيها المراوغ! أنقذك المنديل! فليكن! خذ فاقرأ من هنا.

قال: قصة الحضارة.

قلت: نعم فاقرأ.

قال: «وقد كان للقرآن أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى. وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية، وحضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقاء وبعث فى نفوس الأذلاء العزة والكرامة، وأوجد بين المسلمين.....

توقف فجأة قائلاً: ما هذا؟

قلت: هذه شهادة ول ديورانت على معجزة القرآن فى العرب ولا أظنك تكذبه.

قال: ولو! أتظن ألف خطبة عصماء يمكن أن تفتح باب عقلى مجرد فتح بله أن تدخل فيه شيئاً يقبله حتى ولو كان قائلها وحيد دهره وفريد عصره لا مؤرخا من المؤرخين.

قلت ضاحكاً: هدئ من روعك. الحمد لله. الآن تأكدت أن عافيتك قد عادت إليك تامة كاملة فقل لى أيها العنيد: من ينظر إلى العرب قبل نزول القرآن فيهم وبعد نزوله أيمكنه دون علم مسبق أن يقول: إن هؤلاء هم أولئك، أو أن يخمن أن عرب القرآن أتوا من عرب الجاهلية؟

قال: ربما! وهل توجد الأمة دفعة واحدة فى التاريخ؟ فربما كانوا فى طور من أطوارهم ينتهى بهم إلى ما انتهوا إليه.

فإن عين التاريخ لتقول إنه ما من أمة إلا وكانت متفرقة قبل توحدها وخاملة قبل ارتفاعها.

قلت: فعين التاريخ إذاً تقول إن النفس التى تغير على إخوتها وتخرب البيوت لتقيم المواقد والسقف لتنصب الخيام طور من أطوار النفس التى تقيم النظام وتشيد العمران وتنشأ الحضارة وتنشر العلم والحكمة وتنفذ فى أقطار العالم نفاذ الشمس فى الغيم، فلا يبقى شئ تحتها إلا اكتسى بضيائها؟

قال: أليس هذا هو ما تقوله عين التاريخ؟ فالحضارة أطوار تبدأ فى التراب، ثم تعلوا طوراً فطوراً حتى تصير فى السحاب.

قلت: فإنها لشهادة أشكر لك إنصافك فيها واعترافك بمعجزة القرآن فى العرب بها.

قال مستغرباً: شهادتى! ألن تكف عن الغازك هذه؟

قلت: فإن أثر القرآن المعجز فى نفوس العرب لم يكن أطواراً أو طوراً ولا

حتى نصف طور. فلو طرفت عين التاريخ لما وجدت بين غلقها وفتحها إلا أمتين متباعدتين متباينتين، بينهما من الفرق ما بين ذرات الرمال المسفوحة مع الرياح لا تدفع الريح عن نفسها ولا تأخذ الدنيا منها إلا لسع وجهها، بين شمس السماء تبعث الحياة والنماء فى شعاعها والبصر والنور فى ضيائها.

قال: وخرجنا من الخطب العصماء إلى الشعر!.

قلت: ذكرتنى بالشعر!

قال: يا خلى النفس! أهذا وقت الشعر؟

قلت: وما عليك أن تستريح هنيهة نلتقط الأنفاس من هذه المبارزة الساخنة ونهيئ النفس بما يعيننا على إكمالها. ثم إنى لأعرفك ولوعاً بالشعر متذوقا له.

قال: أمرى إلى الله! ما هو هذا الشعر الذى هبط عليك وحيه فجأة؟

قلت: هل سمعت قول الشاعر الذى يقول:

ووادٍ كجوف العير قفرٍ قطعتُه به الذئب يعوى كالخليع المعيَّلِ

قال متبسماً: نعم سمعته ووقفت عنده. أترانى بحيث أجهل امرؤ القيس؟

قلت: فقل لى أيها الناقد الوقاف: ما الذى خرجت به منه؟

قال: ما أرى هذا الوادى الفلاة إلا نفسه والحياة والزمان.

قلت: وما شأن الفلاة بكل هذا؟

ابتسم فى سرور قائلاً: إن انهماك عقلك فى الشباك وحياكتها يجعلك لا تستطيع استجلاء الشعر ورؤية ما يحويه باطنه والوقوف على نفس الشاعر فيه. فذلك أمر عسير عليك بعيد عنك.

قلت: فكن رفيقاً بى وقربه إلىّ.

قال: سأحاول أن أُفهمك! إن الشاعر هنا ليقطع الفلاة وما به حاجة إلا قطعها والسير فيها.

قلت باستغراب: فإذا كان لا حاجة له فى اجتيازها فما الذى يكلفه هذا العنت وهذه المشقة؟

قال واضعاً ساقاً على ساق: يقطعها لأن غموضها يشده لها ويجعله مجذوباً إليها.

قلت: وهل الفلاة ضريح لولى من أولياء الله الصالحين؟!

قال: لا تكن ضيق الأفق! إن العربى لينظر إلى الصحراء فلا يقطعها نظره ولا يأتى على آخرها سيره، ويرى نفسه فى جوفها لا يعرف من أين ابتدأت ولا أين تنتهى، ولا كيف وجد فيها، وأى غاية فى إحاطتها به إحاطة جوف العير بما فيه.

قلت: إن تفسيرك ممتع! فاكمل إنى لك سامع.

قال: فإذا رأى امتداد الصحراء ورهبتها وخلودها يأتى هو وآباؤه إليها ثم يذهبون وهى باقية، رأى فيها الزمان والدهر لا يعرف من أين ابتدأ وإلى أين ينتهى وفى أى مرحلة هو منه ولماذا وجد فيه، ورأى فى مسيرته فى الصحراء لا تطويها رحلةَ حياته فى الزمان لا تعرف نهايته، تفنى هى ويبقى هو.

قلت: إنك لأديب بليغ وإنك فوق ذلك لفيلسوف.

قال: وإن ترجمة ما رآه امرؤ القيس فى الوادى الفلاة من الزمان والحياة والنفس لفى قول لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع   وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ

....

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ألا ترى أنه ما يرى نفسه بين المولد والممات إلا كسطوع شهاب لا يلبث أن يستحيل رماداً تذروه الرياح.

وأما النجوم والجبال رفاق الصحراء وندامى الزمان فباقية خالدة أبدية؟

قلت : إن هذا كان ليصيب العربى بالحزن والأسى العميق .

قال مقاطعاً لى : وأهم من ذلك الحيرة والقلق العميق – قلق الوجود ومعناه والسؤال المرير لكل شئ حوله : يسأل ناقته فى شموخها وجلدها ووقع خطاها على رمال الصحراء، ويسأل فرسه فى كره وفره وانحطاطه من عل انحطاط نفسه كالشهاب فى الزمن . فإذا لم يجد عندها جواباً يمم شطر النجوم والجبال والوديان والقفار يسألها، فما يجد منها إلا صدى صوته ورجع خواء نفسه فيقول حزيناً كاسفاً :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صماً خوالد ما يبين كلامها

قلت : الحيرة والقلق والتمزق والتيه والتلهف عند كل شئ يطلب منه الجواب عن سؤال وجوده .

قال : نعم تلك هى خبايا نفس العربى فى شعره ووقوفه عند كل ما يحيط به إحاطة الزمان الصامت بحياته .

قلت مبتسماً : فأين هذا العربى التائه الحائر المتمزق الذى لا يعرف معنى لوجوده حتى ليسأل الجبال والنجوم والناقة والفرس عنه من العربى الذى يسيل فيه القرآن سيلاً فيحيله من بركة خاملة إلى أمواج هادرة، ومن تائه فى الزمان إلى قائد للزمان، ومن حائر فى الوجود إلى عين الوجود، ومن سائل متلهف إلى معلم لكل الكون . أليست هذه هى معجزة للقرآن فى العرب . أليست هذه . . . . .

انتفض قائلاً : أيها المخادع! لقد أغريتنى بالشعر وأوهمتنى بالراحة حتى أترك الحذر وأنطلق على سجيتى .

وما فى الأمر إلا أنه خدعة منك . فلم أكن أنتظر منك أن تلجأ معى إلى أسلوب الضرب تحت الحزام .

قلت : اهدأ قليلاً! فليس فى الأمر خدعة ولا ضرب تحت الحزام .

أما عن الشعر فلا أخفى عنك أنى استمتعت بما قلت أيما استمتاع . وإنى لم

أكن أعلم حين بدأت أنك ستنطلق وتسترسل هكذا. على أن استرسالك ممتع وقد كشف لى فيك عن ناقد بصير وقارئ للنفس خبير.

وأما عنى، فقد كنت أرغب فى التلهى ببعض الشعر ويكون أيضاً بسبيل مما نحن فيه. فدع عنك هذا الغضب ودعنى فى متعتى بتحليلك الرائع.

قال بابتسامة شاحبة: على أنى يجب أن أحترس منك بعد ذلك وأضع فى حسبانى أنك ما تصعد بى ربوة إلا وخلفها هوة، وما تسير بى فى روضة إلا وتحت أرضها شَرَك.

قلت: فقل لى أيها الناقد البصير، العارف بالنفس الخبير: أهذا العربى التائه الحائر الممزق يمكن أن يكون هو ربعى بن عامر القادم من الصحراء ليدخل على رستم قائد الفرس مبعوثاً من سعد بن أبى وقاص فيقول له رداً على سؤاله من أنتم: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان والحكام إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة؟

قال فى هدوء: بل هو تصميم وبسالة ويقين وعزم ورسالة.

قلت مبتسماً: فما بين طرفة عين التاريخ وانتباهتها هل يمكن لشئ أن يجعل العربى التائه الحائر القلق هو صاحب التصميم والبسالة واليقين والعزم والرسالة إلا أن يكون معجزة لا ريب معجزة؟

نظر إلىَّ فى صمت ثم أطرق إلى الأرض متفكراً فى هدوء.

* * *

وما لبث أن رفع بصره إلىَّ ثم قال: إن العرب الذين حدثتنى عنهم وجعلت تحولهم حجة على معجزة القرآن فيهم هم العرب الذين خضعوا له وآمنوا به.

قلت: وماذا فى ذلك؟

قال: فيه الكثير! فإن هؤلاء آمنوا بالقرآن إيماناً تاماً وسلموا له تسليماً

مطلقاً. وإنك لتعلم قدرة الإيمان الهائلة على شحن النفوس وتطويع القلوب وشحذ الطاقات. فكم من إيمان رفع أقواماً خاملة، وبعث الحياة فى نفوس هاملة، وفجر ما فجر من الطاقات الكامنة؟

قلت: فإن حال من لم يؤمن بالقرآن معه وشأن نفوسهم أمامه لأدل على معجزته وأبين لأثره فى نفوسهم.

قال: أين هو هذا الأثر وهم إنما كذبوه ولم يؤمنوا به ولم يصدقوا أنه وحى من السماء وتنزيل من الله؟

قلت: بل كانوا يعلمون ذلك ويوقنون به، وإن اتهامهم للقرآن لدليل على تصديقهم به رغم جحودهم المعلن له.

قال: فمن أين أتيت بهذا التصديق واليقين؟

قلت: قل لى: إذا كانوا قد كذبوا القرآن ولم يؤمنوا به، فماذا قالوا عنه وما تفسيرهم له؟

قال: فذلك مشهور معروف. قالوا: إنه سحر.

قلت: وفقط؟

قال: وإنه شعر!

قلت: وماذا أيضا؟

قال: وإنه كهانة.

قلت: فأنت الآن محقق مدقق.

قال مبتسماً: لك زمن لم تتحفنى باحجياتك!

قلت: وجاءك رجل يدعى على خصم له، فإذا اتهمه بتهمة ماذا تفعل؟

قال: أستدعى خصمه وأحقق معه. وأتناول التهمة بالدراسة والتدليل لإثباتها أو نفيها.

قلت: فإذا أنت شرعت فى التحقيق والاستدلال فجاءك الرجل بعد حين يتهم خصمه بتهمة أخرى ولا يذكر الأولى؟

قال: أشك فى أنه كاذب.

قلت: فإذا أنت لم تكد تشرع فى دراسة الثانية جاءك بالثالثة؟

قال: فهو مجنون لا محالة.

قلت: أو .....؟

قال: أو هو مفتر لا يجد فى خصمه تهمة تليق به فينتقل من واحدة إلى أخرى.

قلت: فإذا كان صاحب هذه التهم المتوالية المضطربة جماعة متكاثرة على خصم واحد وكلٌ يرميه بتهمة غير الأخرى؟

قال متفكراً: لا أراه فى هذه الحالة إلا خصماً بريئاً.

قلت: وهم؟

قال: هم حيارى لا يجدون شيئاً حقيقياً يقولونه فيه؛ فيرمونه بالتهمة ثم تراجعهم عقولهم فيها ويرون أنها غير قابلة للتصديق، فيبحثون عن ثانية ثم ينتقلون إلى الثالثة.

قلت: إنك لقاض نزيه! أليس هذا هو حال العرب الذين لم يؤمنوا مع القرآن؟ حيارى! يسمعون القرآن فتقف عقولهم أمامه ولا يجدون ما يقولونه فيه فيفترون عليه السحر، فتراجعهم نفوسهم وعقولهم فيه، فيرمونه بالشعر ثم بالكهانة. وهم فى كل ذلك لا يعدمون من بين أنفسهم من يرد عليهم ويسفه رأيهم ويشهد للقرآن بالعلو على الشعر والسحر والكهانة.

هل سمعت عن أنيس أخى أبى ذر؟

قال: لا. ما شأنه فيما نحن فيه؟

قلت: وصف أبو ذر أخاه أنيساً فقال: «والله ما سمعت بأشعر من أخى

أنيس. لقد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية أنا أحدهم. وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبى ذر بخبر النبى عليه الصلاة والسلام.

قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر .... كاهن .... ساحر. لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقواء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر. وإنه لصادق وإنهم لكاذبون».

فإذا شهد عليهم من بين أنفسهم من يعرفون عقله ورأيه لم يستقر لهم حال ولا بيان، ولا يكون لهم من أنفسهم إلا العجز والخذلان؟

قال: انتظر! انتظر! إنك كعادتك تقفز من شئ إلى شئ! فما شأن اختلاف التهم وتفاوت وصفهم القرآن بالعجز والخذلان؟ وهل كل خصم يعدد التهم لخصمه صادقة أو كاذبة يكون شاعراً بالعجز والخذلان؟

قلت: بل هاك العجز والشعور بخذلان النفس صريحاً لا لبس فيه. فخذ فاقرأ.

قال: أقرأ! ألا تهدأ أبدا؟! أين أقرأ.

قلت: هاك السيرة وصحيح البخارى فاقرأ من أيهما شئت.

قال: هات! قال عتبة بن ربيعة يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

توقف فجأة قائلاً: ما هذا؟ ألا يكفيك ما أقرأه كل حين حتى أعيد ما قرأته من قبل؟

أتراهن على ضعف ذاكرتى؟

قلت مبتسماً: دع أول القصة وأكمل نهايتها التى لم تقرأها من قبل.

قال: أمرى إلى الله!! حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع منى. قال أفعل. فقال:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ١-٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك. فقام عتبة لا يدرى بم يراجعه ورجع إلى قومه فقال لهم: والله لقد كلمنى بكلام والله ما سمعت أذناى بمثله قط فما دريت ما أقول له.

قلت: ها! ألا يدلك صمت عتبة هذا وانقطاع قوله على إحساسه بالعجز أمام القرآن وقصور النفس عن أن تجد شيئاً ترميه به؟

قال: ما زال ذلك شيئاً بعيداً. فإذا كانوا - كما تقول - يحسون بالعجز والنقص والقصور أمام القرآن وارتفاعه عليهم وانخفاضهم عنه فلماذا رفعوا راية القتال أمامه؟ أهذا دليل على الإحساس بالعجز والقصور أم على القوة والأنفة فى المواجهة؟

قلت: بل هو دليل على العجز والقصور.

فقال: إن أمرك لعجيب! وإنك لتلوى عنق الحجة وتستشهد بها على خلاف ما تدل عليه وبراءة الأطفال فى عينك وكأنك لم تفعل شيئاً!

قلت: بل والأعجب أن احتشادهم لقتال القرآن وأهله ورفعهم راية الحرب أمامه لدليل على عجزهم من جهتين لا من جهة واحدة.

قال متهكماً: من جهتين مرة واحدة! فأين هى الجهة الأولى أيها العبقرى؟

قلت: شنهم للحرب واحتشادهم للقتال نفسه.

قال: لا أفهم شيئاً.

قلت : فقل لى : بم تحداهم القرآن؟ : بأن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ولو كأصغر سورة أم بالقتال والسلاح والمبارزة؟

قال : بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله .

قلت : فأنت الآن خصم عنيد !

قال : بعد أن كنت محققاً مدققاً جعلتنى خصماً عنيداً، ولا أدرى إلى أين ستنتهى بى أحجياتك؟

قلت : وخصمك يعالنك على الملأ أنه سوف يقر ويسلم لك ويشهد بالهين اليسير تفعله، أتترك ما طلبه منك هيناً يسيراً وتتكلف العسير الذى يذهب مالك ويزهق روحك؟

قال : فإنى إذاً لمخبول .

قلت : أو عاجز عما دعاك إليه ولا تقدر عليه .

قال مبتسماً وهو يهز رأسه : أو عاجز .

قلت : فها أنت شهدت بنفسك أن حرب العرب لأهل القرآن إنما كان عجزاً منهم عن منازلة القرآن نفسه . فلولا هذا الإحساس منهم بالعجز عنده والتضاؤل أمامه، أما كان الأولى بهم أن ينزلوا ميدان القول ومعترك الكلام وهم حافظون لأموالهم متمتعين بأبنائهم وأنفسهم ويقضون بذلك على ما فرقهم ونغّص عليهم عيشهم وسفه أحلامهم وكفر آباءهم بدلا من أن يجمعوا أموالهم فيفقدوها، ويحشدوا أنفسهم وأبنائهم فيفنوها وتتشتت جماعتهم ويظل العجز عن مقارعة القرآن مقروناً بهم أبد الآبدين فى أشرف ما يملكون : اللسان، ومصدر فخرهم وعزهم : البيان؟

قال : إنك لحكيم عاقل ولا تبدد طاقتك وتذهب نفسك فى منابذة خصمك بالعسير وأنت تقدر عليه باليسير . ولكن أتريد أن تلبس العرب – وهم الأميون – حكمتك هذه وتجعلهم يوازنون ويتخيرون بعقلك لا بعقولهم؟

قلت: بل هم الذين وازنوا واختاروا ما يقدرون عليه وتركوا ما أيقنوا عجزهم عنه. ألا ترى أن قائلهم يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] فإذا آن أوان الجد والمنازلة ترك القول إلى السيف والكلام إلى الحشد والحرب. فلو كانوا يقدرون على الكلام لقالوا وأراحوا أنفسهم واستراحوا من هذا الذى نزل بهم وقلب حياتهم.

قال: يمكننى أن أفهم أن تركهم منازلة القرآن عجز عنه لكن قتالهم له شئ آخر. فلا أفهم كيف يكون قتال شئ وحربه دليلاً على القصور أمامه وانهزام النفس عنده؟

قلت: وما العجيب فى ذلك؟ فكم من خصم قاتل خصمه وهو عارف بقوته. بل وموقن بعلوه عليه وقصور قدرته عنه!

قال: وهل تكون هذه حرباً أو مقاتلة أم تكون يأساً بلا أمل وهزيمة قبل الهزيمة؟

فإن المقاتل الذى لا يثق بقوته وإنما بقوة خصمه ويرنو إليه فى إعجاب لا أمل له فى نصر ولا ثبات.

قلت: قد كفيتنى بعقلك الرشيد الجهة الثانية.

قال: أى جهة ثانية؟!

قلت: هل نسيت؟! حرب العرب للقرآن وأهله كانت دليلاً على عجزهم وخذلانهم أمامه من جهتين.

قال: آه!

قلت: انهزامهم أمامه المرة تلو المرة فى ساحة القتال بعد هزيمتهم وفرارهم من ساحة القول والبيان.

قال: إنك تخترع الحجج اختراعاً! وما كانت هزيمتهم إلا باجتماع المسلمين وتضافرهم والطاقة التى بثها الإيمان فيهم. ومن قاتل فى سبيل شئ إيماناً به هانت

عنده الحياة واستحب عليها الموت، فلا سبيل لهزيمته ولو احتشد الناس كلهم لقتاله.

قلت: إن كلامك لصحيح لا ريب فيه. فهذا سبب لانتصار أهل القرآن. ولكن الأمر لا يكتمل إلا بما جعل محاربيهم ينكصون فلا يثبتون، وينتقلون من هزيمة إلى هزيمة، ويتفرق عنهم أعوانهم ويخسرون أنصارهم يوماً بعد يوم.

قال: وما هو هذا الذى لا يكتمل الأمر إلا به؟

قلت: سُئل على بن أبى طالب: لماذا صرت بطلاً لا تلقى رجلاً فى قتال إلا صرعته، ولا بارزت خصماً إلا غلبته؟ أتدرى ماذا قال؟

قال: لا أدرى. ربما افتخر بقوته أو شجاعته.

قلت: لا. بل قال: لأنى كنت ألقى الرجل فأُقدر فى نفسى أنى أقتله ويقدر هو فى نفسه أنى أقتله، فأكون أنا ونفسه عليه.

قال: إنها لمقولة خبير بالنفوس بصير بالحروب. ولكن مالها وهزيمة العرب أمام القرآن؟

قلت: بل هى تفسير هزيمتهم. فإنهم كانوا يخرجون لقتال القرآن وهم موقنون بعجزهم أمامه.

قال ساخراً: فذلك عجز ألسنتهم. وهل رأيت أحداً يمسك سيفه بلسانه حتى تقول لى إن عجز لسانهم عن منازلة القرآن أوهن سيوفهم فى الميدان؟!

قلت: بل هو عجز ألسنتهم وعقولهم يتسرب إلى نفوسهم بالضعف والعجز، وإلى إرادتهم بالوهن، وإلى جوارحهم بالشلل واليبس فيتقدمون وهم يريدون الإحجام، ويحلمون بالنصر وهم موقنون بالهزيمة، ويشعلون نار الحرب وهم يتمنون خمودها، فيقفون فى ميدان القتال وقد احتشدت أنفسهم قبل المسلمين لهم فيكون المسلمون وأنفسهم عليهم، فما يصمدون فى قتال ولا يثبتون فى ميدان.

قال: أتظن هذا التفلسف يجدينى شيئاً؟ وكل ما قلته لايفسر شيئاً ولا يشهد بما تريد. هب أنهم عجزوا عن القرآن وهزموا فى ميدان اللسان، أما كان ذلك داعياً وحافزاً لأن يحشدوا طاقتهم فى ميدان القتال كما قلت أنت لينتصروا فيها ويغطوا بنصرهم فى الميدان على فرارهم من ساحة اللسان؟

قلت: فقد أجبت أنت نفسك على نفسك.

قال مبتسماً: ظننت أن ألغازك قد مضى زمانها.

قلت: فقل لى: أى شئ نبغ فيه العرب وبلغوا المدى؟

قال: وهل جنى علينا وأوردنا ما نحن فيه إلا ما نبغوا فيه ولم يعرفوا غيره؟!

قلت: وما هو هذا الذى جنى علينا؟

قال: الكلام وشقشقة اللسان. وهل كانوا ولا يزالون يعرفون غيره؟ فسلمهم كلام وحربهم كلام، وعملهم كلام وعلمهم كلام.

قلت مبتسماً: إنك لحانق على الحاضر يائس منه حتى لتسقطه على التاريخ كله. وربما يحسن الأمر فى زمان ويعاب فى غيره. فدع عنك بؤس الحاضر وخلّنا فيما نحن فيه.

قال متنهداً: كما تحب! نعم. نبغ العرب فى الكلام وإدارة اللسان وسحر البيان، يكون المعنى أمام المرء منهم واحداً فيقول فيه من البيان ما يسحر الألباب، ويتفننون على البديهة فى القول، ويخترعون الكلام العجيب فى الجليل والخطير وفى الدقيق والحقير. وهل هناك أعجب من أن يقيم قوم أسواقاً للكلام والمبارزة والتصارع بالقول والبيان؟ لعمرى إنها لنادرة عجيبة فى الأمم!

قلت: والأعجب منها أن الكلمة البليغة من أحدهم لتقتحم النفوس وتهز الوجدان؛ فتجرئ الجبان وتشبط همة المقدام، وترفع الخامل وتهوى بالعلى الرفيع. وإن بيتاً واحداً من الشعر ليهزم قبيلة بأكلها فيسيرهم جميعا مطأطأى الرؤوس وقد عجزت أن تنال من إباء نفوسهم وشموخ أنوفهم الرماح والسيوف.

قال مندهشاً: بيت من الشعر يهزم قبيلة باكملها؟!

قلت: نعم فإن قبيلة من العماليق كانت تفخر على العرب جميعاً بطول عودها وفراعة أجسامها ويمشون يتهادون على الأرض اختيالاً حتى هجاهم حسان ابن ثابت فى الجاهلية ببيت، فصاروا بعده يمشون منكسى الرؤوس يتوارون من الناس ويستخفى أحدهم حتى لا يُعلم أنه منهم.

قال: فما هو بيت الشعر الأعجوبة هذا الذى جعل مصدر عزهم سبب ذلهم؟

قلت:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

قال ضاحكاً: إن قوماً يفعل بهم بيت من الشعر هذه الأفاعيل لقوم نصف عقولهم فى ألسنتهم ونصفها فى آذانهم.

قلت مبتسماً: وهل نسيت نفوسهم؟

قال: عدت لما بدأنا منه.

قلت: فالسنتهم هى عقولهم وهى نفوسهم وهى مصدر طاقتهم وهى مكمن عزتهم ومعين قدرتهم.

قال: فإذاً؟

قلت: فإذاً قد بان لك لماذا هزموا ولم يثبتوا أمام القرآن فى قتال بعد أن فروا من معركة القول والبيان، فإن القرآن هزمهم فى ألسنتهم وبلاغتها، فكأنه بذلك هزم عقولهم وهزم نفوسهم وضرب مصادر الطاقة التى يستمدون منها العزيمة للقتال، فكانوا فى بلاغتهم وتنازع البيان فى أسواقهم ومحافلهم كمصابيح تتنازع الضوء والنور فلما طلعت عليها شمس القرآن كسفت وانطمست جميعاً.

قال: فلذلك كانوا يقاتلون ونفوسهم واهنة وعزائمهم خائرة وإرادتهم مهزومة؟ فما يثبتون فى ميدان ولا يصمدون لقتال؟

قلت : وهل تصمد مصابيح الأرض أمام شمس السماء؟!

قال : ما زلت أحس بعدم الراحة والاطمئنان .

قلت : ولم؟ أما زال فى نفسك شك فى إعجاز القرآن للعرب وإفحامه لهم؟

قال : إنى كلما قلبت الأمر من وجوهه ورضيت عن وجه ظهر لى من وجه ما يقلقنى ويجعل نفسى غير راضية وعقلى غير مكتف ولا قانع .

قلت : فما الذى ظهر لك جديداً؟

قال : إشهار العرب للسيف أمام القرآن وشنهم الحرب على أهله .

قلت : أما اتفقنا أن ذلك كان عجزاً منهم عن منازلة القرآن نفسه، وإيقاناً بقصورهم عنه وارتفاعه عن طاقتهم؟

قال : اتفقنا؟! أنا لم اتفق على شئ! أنت الذى اتفقت مع نفسك!

قلت : أيها المشاكس! ماذا تريد إذاً؟

قال : لا يرضى عقلى حتى أزيل كل الشكوك من نفسى .

قلت : فإذاً؟

قال : إنى تفكرت فرأيت هؤلاء العرب لُسن بلغاء فصحاء، وما أماريك فى سمو بلاغتهم ولا علو فصاحتهم .

قلت : فأين هى المشكلة؟

قال : المشكلة أن هؤلاء البلغاء الفصحاء جفاة بداة أميون لا يزنون الأمور بميزان الحكمة ولا قسطاس العقل . ومن أين لهم العقل والحكمة فى هذا التيه النفسى والاجتماعى والأخلاقى الذى كانوا يعيشون فيه؟! .

قلت : وما حاجتك إلى حكمتهم؟ أكنت تريدهم فلاسفة؟

قال : لا . ولكن افتقادهم للعقل والحكمة وميزان الأمور ليفسر انصرافهم عن الحجة إلى إشهار السيف، وعن المعارضة إلى رفع راية الحرب .

قلت: كيف أيها الحكيم؟

قال: إن هؤلاء قوم يعيشون بين الصحراء والجبال فلم يصقل عقولهم علم ولم تهذب أرواحهم معرفة. وإن أيديهم إلى السيوف لأسرع من الأفكار إلى عقولهم، وإن أحدهم لتسبق يده إلى السيف عقله إلى الحجة.

قلت: كيف وهم كانوا يتحاجون فى الأسواق ويقوم بعضهم لبعض معارضة ومقارعة؟.

قال: فذاك سوق مقام للحجة وقد أهبوا أنفسهم له وعلموا وهم مقدمون عليه أن المقام فيه تحد وأن الغلبة لصاحب البيان واللسان. وما فى الأمر مساس بدينهم ولا آباءهم وآلهتهم.

قلت: فتسفيه القرآن لأحلامهم وتكفيره لآبائهم وتفريقه لعشيرتهم ليجعل شأنه عندهم أمعن فى التحدى وأولى بالمعارضة.

قال: بل هو حجة لى لا لك. ألا ترى أن القرآن لما سفه أحلامهم وكفر آباءهم وفرق عشيرتهم أشعل عواطفهم وثارت جوارحهم وفارت حميتهم وعصبيتهم؟

قلت: بلى!

قال: فإن اشتعال عواطفهم وثورة جوارحهم وفوران حميتهم وعصبيتهم لكفيل أن يُذهب كل عقل ويحجب أى حكمه. ففى أتون العاطفة وفورة الحمية لا مجال للعقل والحكمة.

قلت: ألم تكن تكفيهم هزيمة واحدة ليعلموا أن اجتماع أمرهم وذهاب خصمهم فى أن ينازلوا القرآن نفسه؟

قال: نعم لم تكن تكفيهم. وإن هزيمة لتشعل نار الثأر فتجر هزيمة فهزيمة، كحبات العقد ما إن تسقط واحدة حتى تسقط الباقية تباعاً.

وما أرى إلا أن همتهم انصرفت إلى القتال وحشد الحشود فشغلهم ذلك عن منازلة القرآن نفسه ولم يفطن عقلهم إلى الميدان الذى يجب أن يكونوا فيه.

قلت: وكيف لا يفطنون والقرآن ينخزهم كل حين ويصفعهم ويلوى أعناقهم لياً ويحشدهم حشداً ويدفعهم دفعاً إلى هذا الميدان؟

قال: ينخزهم؟ ... ويصفعهم؟!

قلت: نعم. وهل بعد التحدى على الملأ وإهانتهم فى مصدر عزهم وإذلالهم وتذكيرهم كل حين وآن بخزيهم وعجزهم وهم أرباب الفصاحة والبيان صفع أو نخز؟

فانظر إلى القرآن يتحداهم فى علو وهيمنة فيقول لهم:

﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ألا ترى المذلة والمهانة فى أن يتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ويستعينوا على ذلك بمن شاءوا من الإنس، وإن استطاعوا فمن الجن، فلا ينطقون مع افتخارهم بالبلاغة وعلو بعضهم على بعض بالفصاحة؟

قال: فذلك القرآن كله. فلعلهم انصرفوا عنه لعلمهم بما فيه معارف تقصر عقولهم دونها ومعرفتهم عنها.

قلت: فإنه نزَّل هذاالتحدى درجة فقال لهم: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾

[هود: ١٣]

أما ترى كيف خفَّض التحدى من أن يأتوا بالقرآن كله إلى أن يأتوا بعشر سور، ثم أمعن فى إذلالهم وبيان عجزهم فجعلها مفتريات، فكأنه يقول لهم: إن عجزتم عن أن تأتوا بعشر سور من مثل هذا القرآن فى معانيه ومعارفه، فافتروا عشر سور مثل لفظه وكلامه وضعوا فيها ما شئتم من معان صحيحة أو باطلة، أصلية أو مفتراة. فهل استطاعوا أن يقولوا عشر سور ولو اختلاقاً؟

قال: وعشر سور كثيرا!

قلت: فيا أيها العنيد! ها قد تحداهم بسورة واحدة ان يأتوا بمثلها ولو كأصغر سورة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

فلو كانوا يقدرون أتراهم كانوا يتركون هذه الفرصة فلا يهتبلونها والقرآن ينزل التحدى فى كل مرة درجة ودرجات. ومع كل درجة ينزلها التحدى يزداد خزيهم ويتأكد عجزهم ويستطير فى الآفاق عارهم حتى يصير راية يعرفون بها وتعرف بهم.

فقل لى: أنت مصارع قدير.

قال ضاحكاً وهو ينظر إلى ذراعه: يا ساتر!

قلت: وجاءك خصم يتحداك أن تصارعه وتكون بطلاً للعالم، أتقبل؟

قال مبتسماً: تنبئك عظامى عن الخبر.

قلت: فلو أعلن خصمك على الملأ أنه سوف يصارعك بيديه دون رجليه.

قال: حقيقة لن أصارعه وإن كان خجلى من الناس سيدفعنى لذلك مخافة الوصم والعار.

قلت: تذكر أنك لست أنت ولكنك مصارع قدير مشهود له. فإذا أعلن خصمك أنه سينازلك بيد واحدة وأنت حر طليق فيما تقاتل به.

قال: إذا لأطبقت عليه بيدىّ ورجلى. وإن يداً واحدة لا تفعل شيئاً ولو كان صاحبها شمشون.

قلت: فإن لم تفعل؟

قال: وكيف لا أفعل. وإلا فإنى عاجز.

قلت: فهل فعل القرآن إلا أن تحداهم أن ينازلوه كله، فلما لم يجرؤوا تحداهم أن ينازلوه بعشر سور. ولما أبان لهم هيمنته وعجزهم دعاهم للنزال بسورة

واحدة لكى تكون فضيحة لهم فى العالمين. فلولا أنهم عاجزون أمامه يائسون من مطاولته لنطقوا. وما نطقوا.

ثم انظر إلى هذه الآية العجيبة: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾

[البقرة: ٢٣ -- ٢٤]

فتأمل ﴿ **لَّمْ تَفْعَلُوا** ﴾ و ﴿ **وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾ هذه التى تصمهم بالعجز وتهيجهم وتثير فيهم التحدى إلى أقصى طاقة يملكونها فلو كانت بهم قدرة على تحدى القرآن ومنازلته لتفجرت ألسنتهم شلالات هادرة يدفعون بها عن أنفسهم هذا الوصم والاستهزاء والفضيحة التى نزلت بهم حالاً ومستقبلاً.

قال: فلم يقولوا شيئاً؟ أى شئ؟!

قلت: وهل يجد السراب من نفسه جرأة يطاول بها الماء وهو يعلم من قدر الماء ما يعلم من نقصه فى نفسه؟

* * *

قلت: أولا أدلك على شئ أدل على إعجاز القرآن لهم من عجزهم عن تحديه لهم؟

قال: وهل هناك ما هو أدل من عجزهم عن هذا التحدى وخذلانهم فى نفوسهم وفرارهم من الحرف إلى السيف مع ما فيه من إهلاك أموالهم وإفناء أرواحهم؟

قلت: نعم! هناك ما هو أبين لإعجاز القرآن وعجزهم.

قال مستغرباً: وما هو؟

قلت: عجزهم عن نقده. فتأمل معى: هم قد عجزوا عن معارضة القرآن والإتيان بمثله ولو كأصغر سورة من مثله، ولو جاءوا بها لانتهت مشكلتهم

وحُلت عقدتهم وتفرق خصمهم. ولكن الا ترى أنهم إذ لم يستطيعوا ذلك لو قام قائم منهم وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان فقال: إن هذه الكلمة تنبو عن موضعها، أو هذا الحرف لا يناسب مكانه وهناك ما هو أولى به منه، أو هذه الآية تنافر ما قبلها أو ما بعدها لانتهى الأمر وواروا عجزهم عن المعارضة بقدرتهم على النقد، ولتداركوا فضيحتهم وخزيهم بادعاء انصرافهم عن معارضة القرآن لعيب فيه لا لعجزهم عنه.

قال: أفلم ينقدوا أى كلمة فى القرآن؟

قلت: ولا حرفاً واحداً. وإنما أخذ القرآن نفوسهم من اقطارها وجمع ألسنتهم فى قبضته فلا تستطيع فكاكاً ولا تفلتاً.

ها! ما رأيك أليس عجزهم هذا عن نقد القرآن ولو كلمة واحدة فيه ينهون فيه هذا النزاع المرير لبرهان على إعجاز القرآن لهم ونزوله منهم منزلة القدر من رب القدر لا يُصد ولا يُرد؟

قال مبتسماً: انتظر لحظة وتمهل. فما زال فى الأمر شئ!

قلت: وأى شئ بعد ذلك؟

قال: إن هؤلاء العرب كانوا أرباب فصاحة وبيان، وأهل شعر ومقال، وأصحاب بلاغة ولسان ولكنهم بعدُ أميون. والأمى قد يقول لكنه يعجز عن النقد، لأن القول من شأن اللسان يأخذه بالفطرة ويأتى به على البديهة. أما النقد فمن شأن العقل ولا يتأتى إلا بالمران الشاق والممارسة الطويلة والمعرفة المتراكمة والعلم بالفروق بين الألفاظ والحروف.

قلت: بل إن فطرة اللغة فيهم – وهم أهلها وأرقى الناس فيها كمالاً – لتقوم فى الواحد منهم مقام العقل فى ألف من غيرهم.

قال: هذا كلام يصلح للإنشاء. فكيف تقوم الفطرة مقام العقل؟ وهل يتعلم الناس ويدرسون إلا ليرفعوا سذاجة الفطرة إلى مقام العقل؟

قلت: بل هم فى العربية ما يتعلمون إلا ليرفعوا العقل واللسان بالممارسة والمران إلى منزلة الفطرة فى أهل اللغة الخلصاء.

قال: أتظن قلبك للأمور هكذا يُدخِل منها شيئاً فى عقلى؟ وإن كلامك لا يستقيم مع نظر سديد وما عليه من دليل.

قلت: الحمد لله! قد أنهيت هذا الجدل العقيم. فهاك الدليل:

وقف حسان بن ثابت فى الجاهلية ينشد فى عكاظ:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدْنا بنى العنقاء وابن محرِّق فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنا

قال: فاين هذا الدليل وما فيه إلا فخر كفخر الجاهلية لا يعدوه؟

قلت: تمهل يا قليل الصبر! فإنه ما إن أنهى شعره حتى قامت له الخنساء فقالت له: ضعفت افتخارك وأبرزته فى ثمانية مواضع. قال: وكيف؟ قالت: قلت: لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشر فقلَّلت العدد، ولو قلت: الجفان لكان اكثر. وقلت الغرة، والغرة البياض فى الوجه، ولو قلت: البيض لكانت أكثر اتساعاً. وقلت: يلمعن، واللمع شئ يأتى بعد الشئ، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالعشية لكان أبلغ فى المدح لأن الضيف أكثر طروقاً فى الليل. وقلت: أسيافنا، والأسياف دون العشرة، ولو قلت: سيوفنا كان أكثر. وقلت: يقطرن، فدللت على قلة القتل ولو قلت: يجرين كان أكثر لانصباب الدم. وقلت: دماً، والدماء أكثر. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدوك.

قال منبهراً: يا لها من ناقدة رائعة بارعة! فلو عرض هذا الشعر على ناقد من عصرنا لاحتاج أياماً طويلة من الغوص والاستقراء ومراجعة المعاجم حتى يصل إلى ما وصلت إليه.

قلت مبتسماً: ووصلت إليه على البديهة وفى سوق عامة للكلام. ثم انظر معرفتها الدقيقة على الفطرة لكل كلمة ومعناها وما هو أحق منها بموضعها وأكثر إبانة فى مكانها منها.

أرأيت كيف أن فطرة هؤلاء هى ما يصول العقل ويجول ويجد ويجتهد ويروح ويجئ لكى يصل إليه إن استطاع.

قال: حقاً إن براعة الخنساء وملحظها الدقيق فى الفروق بين الكلمات لتحيرنى.

قلت: فما تقول فى أن الذى حيرك أنت هكذا وجعلك مذهولاً من براعته ودقته هو الذى أصابه العى أمام القرآن فلم ينطق، والحيرة فلم ينقد؟

ألا يدلك عجز من تجد العقول وتكد لتصل إلى فطرتهم على أن الذى أعجزهم معارضته وأعياهم نقده مع إهاجته وإهانته لهم وإلهابه لنفوسهم هو شئ فوق طاقة البشر وقدرتهم؟!

قال: فإذا كان هذا شأنهم معه فلم اتهموه بالشعر والسحر والكهانة؟

قلت: إن هذه لتهم لهم وهى للقرآن لا عليه.

قال: كيف تكون تهمهم عليهم وللقرآن؟

قلت: ألا ترى أن هذه التهم لا تقدح فى القرآن كلمة ولا تعيب حرفاً، وإنما هى أقوال بينة الكذب يصرفون بها الناس عن سماع القرآن. فهى دليل على كذبهم واضطرابهم وما فيها من نقد القرآن شئ. وإن شهادتهم من أنفسهم لرد عليه.

قال: هذا عجيب! كيف يشهدون للقرآن وهم يتهمونه؟ وكيف يمدحونه وهم يعيبونه؟

قلت: فانظر إلى هذه القصة: دخل جبير بن مطعم وهو فى أسرى بدر المسجد قال: سمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ

هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور : ٣٥] إلى قوله ﴿ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور : ٣٧] كاد قلبى يطير إلى الإسلام .

قلت : فانظر إلى قوله : كاد قلبى يطير، وما توحى به من غلبة القرآن لنفسه عليه وضمها إليه رغماً عنه وارتفاعها وفرارها منه إلى القرآن كالطير يفر من جاذبية الأرض إلى آفاق السماء .

قال : جميل . ولكن ذلك رجل أسلم !

قلت : فذلك كان قبل إسلامه . ومع ذلك فهاك الشهادة الصريحة وإنها لأجمل شهادة من قمة البلاغة والبيان البشرى فى معجزة البلاغة والبيان الإلهى .

قال : شوقتنى !

قلت : فخذ فاقرأ ليجتمع لسانك وعينك مع أذنك .

اختطف الكتاب من يدى وهو يقول أرنى : « جاء الوليد بن المغيرة إلى النبى عليه الصلاة والسلام فلما قرأ عليه القرآن رق له . فبلغ ذلك أبا جهل فقال له : يا عم ! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه . فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله . قال الوليد : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره . قال : وماذا أقول ؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر لا برجزه ولا بقصيده، ولا أشعار الجن . والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا . والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه مثمر أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته .

قال متوقفاً : ما أجمل هذه العبارات وأروعها !

قلت : فماذا إذاً يكون رأيك فى الذى قيلت فيه والذى قالها مشرك مناهض رأس قومه فى العداء والمحاجة، ومات وهو على ذلك ؟

قال : إن هذا لشئ عجيب !

قلت: بل إنها المعجزة. فإن الذى أنطقه بهذا الثناء وهذه الشهادة على ضغنه وحقده وشدة عداوته لا يمكن إلا أن يكون معجزة.

أتعرف الأعجب من ذلك؟

قال: وهل هناك ما هو أعجب من ذلك؟

قلت: أبو جهل. هذا الذى أخذ على الوليد رقته للقرآن.

قال: وما العجب فيه وإنى لأراه حانقاً شديد الحنق حديداً فى عداوته لا يعرف مهادنة ولا مهاونة.

قلت مبتسماً: فما قولك فى أن هذا الحانق الشديد الحنق الحديد فى عداوته حتى ليلوم من يرق للقرآن أو يسمعه قد غلب القرآن عليه نفسه حتى لتهفو للقرآن وتتطلع إليه ويسترق السمع لتلاوته.

قال باستغراب: لا أصدق أن هذا العدو اللدود الرافع لراية الحرب أمام القرآن الحامل للواء محاصرته وإبادة أهله بهفو للقرآن ويتطلع إليه ويسترق السمع لتلاوته وهو يسبه جهاراً نهاراً.

قلت: بل صدق، فخذ فاقرأ.

قال: «خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفى ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له. حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً. ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر، فتفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق.

قلت: ها! ما رأيك؟ ألا ترى كيف غلب القرآن نفس هذا العدو الحديد العنيد وغزاه حتى ساقه إليه في ظلام الليل سوقاً يتسمع له؟

قال: هذا غريب! فإذا كان القرآن قد غلبه وتولهت نفسه به حتى ليغامر بشرفه في قومه ويتلصص على الجدران لعل أذنه تلتقط القرآن، ويظل لابثاً في ليل مكة القار، فلم يعاديه كل هذه العداوة في النهار علانية؟

قلت: قد كفانا هو تفسير ذلك. فإن الأخنس بن شريق ذهب إليه يسأله عن رأيه فيما سمع فقال: «ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذا الشرف؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه».

أما ترى أنه لم يعب في القرآن شيئاً ولا حرفاً مما سمعه، فهو جاحد بما يعلم أنه صادق، معاند لما هو موقن بإعجازه له إعجازاً يغلب نفسه عليه حتى لا يجد مهرباً منه إلا أن يغلق أذنه ويتحاشى سماع القرآن بها، وإلا لفتح بها مغاليق نفسه وقلبه وعقله ولسقط جحوده وعناده صريعاً أمام سحر القرآن.

فهل يمكن أن يفعل شيء في نفس هذا الجاحد المعاند الشديد الأنفة والعصبية مثل هذه الزلزلة، ويأتي به راكعاً متلصصاً على غير إرادته وهواه إلا معجزة خضعت لها نفسه وبادت أمامها إرادته.

قال متفكراً وهو ينهض من مجلسه: حقاً! إن هذا لشيء عجيب!

* * *

قلت: أراك مجهداً!

قال وهو يغلق الكتاب في يده: اجلس فإني متشوق للقائك.

قلت ضاحكاً: قد جلست. أراك بت ليلتك في أحضان كتبك هذه المتناثرة فماذا كنت تفعل؟

قال: كنت أراجع ما تحدثنا فيه.

قلت: وهل رابك فيه شئ حتى تراجعه؟

قال: لست بحاجة إلا أن يريبنى شئ. وما تطمئن نفسى إلا بمراجعة ما تقول والتثبت منه وتقليب وجوه النظر فيه، ولا أخفيك: إنى أسجل ما يدور بيننا وأراجعه من حين لآخر لأنظر فيه بروية واتامله على مهل.

قلت: وإنى لكذلك أسجل ما يدور بيننا وأراجعه، فلا أعرف أنفسك منى أم نفسى منك!

قال متبسماً: بل نحن نفس واحدة فى لسانين وقلمين.

والآن قل لى.

قلت: ماذا أقول لك؟

قال: أما قلت لى: إن العرب عجزوا عن محاكاة القرآن ومعارضته رغم تحديه وإهاجته وإهانته لهم ولو بسورة كأصغر سورة؟

قلت: بلى قلت هذا!

قال: فإذاً! ما هذا الذى وجدته من معارضات للقرآن وسور كسوره؟

قلت: ليست سوراً كسوره. فقل لى: ماذا وجدت؟

قال: فما رأيك فى ما قاله مسيلمة: «الفيل ما الفيل. وما أدراك ما الفيل. له مشفر طويل وذنب أثيل. وما ذلك من خلق ربنا بقليل».

قلت: وهل تجد فى هذا السخف شيئاً يشبه القرآن ويقف له جلالاً وروعة وامتلاكاً للسمع وأخذاً للنفس؟

قال فى حذر: أليس هذا القول من مسيلمة يقوم لفاتحة سورة القارعة ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ - ٣] فهو على نمطها ويسير على أوزانها ويحاذى إيقاع كلماتها؟

قلت: إنك لبارع! فقد وصلت إلى الإجابة بنفسك وكفيتنى عناء التفسير والمقارنة.

نظر إلى مستغرباً ثم أشار بالاستمرار.

قلت: ألا ترى أن مسيلمة لم يفعل إلا أن أتى بسورة من القرآن راعه فيها وزنها والموسيقا التى تنبعث من إيقاع كلماتها وتجانس حروفها، ثم ما كان منه إلا أن نزع كلمة ووضع مكانها كلمة ليحتفظ بالوزن والإيقاع الذى يأخذ الأذن؟

قال: وماذا فى ذلك؟

قلت: فيه كثير. فهو لم يأت بشئ على الإطلاق. أتعرف الفسيفساء؟

قال: نعم أعرفها. تلك الوحدات الزخرفية الصغيرة التى يرتبها صانعها فى تناسق بديع وائتلاف رائع يأخذ بالأبصار، وتذهب فيها العين بين أولها وآخرها، وتعجب النفس من دقة صنعها، ويقف المرء أمامها ساعات لا ينقضى إعجابه بها ولا عجبه من مهارة اليد التى أخرجتها.

قلت: فإنه رأى إيقاع القرآن وموسيقاه أول ما يخطف الأذن العربية ويخترق نفوس العرب، فما كان منه إلا أن وضع القرآن أمامه وأخذ يتبع نظم القرآن ووزنه وإيقاعه تبع المقهور للقاهر؛ فينزع الكلمة ثم يبحث عن مثيلة لها ليضعها فى مكانها دون أن يدرك علاقة الكلمة بأختها فى جملتها والائتلاف بينها وبين المعنى والنظم. فكان ما فعله كمن يأتى لفسيفساء بديعة التناسق رائعة الإحكام يروعه خطفها للأبصار واستيلاء جمالها على العيون، فينزع وحدة زخرفية ويضع مكانها أخرى، ويبدل لوناً هنا بشبيه له هناك، ثم لا يكون من استيلاء الألوان والوحدات الصغيرة على بصره إلا أن يذهل عقله عن تركيب هذه الوحدات الزخرفية المتجانس فى منظومتها، فيحيل الأصل البديع الرائع فوضى متناثرة تهرب منها العين وتمجها النفس بعد أن قطع أوصالها وشتت ألوانها.

قال: صبراً صبراً! وفسر لى هذه التشبيهات الغامضة.

قلت: فتأمل معى. إذا سمعت قوله تعالى ﴿ **الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** ﴾ وبعد أن تسلب أذنك حلاوة النظم وتستولى على نفسك موسيقا الإيقاع، ما الذى يقع فى نفسك من هذه المقدمة؟

أطرق إلى الأرض متفكراً ثم رفع بصره وقال: يقع فى نفسى أن القول

وتكرار ﴿ مَا ﴾ فيه وتكرار كلمة ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ هو مقدمة لأمر جلل وخطب عظيم سوف يحدثنى عنه، فينبهنى إليه ويشد ذهنى وعقلى ويهيئ نفسى لاستقباله.

قلت: وهذا ما حدث، فإن القرآن بعد هذه المقدمة الهائلة أتى بما يليق بها وما يستأهل أن يُشحذ العقل والذهن وتهيئ النفس لاستقباله: فيوم القيامة وبعث الناس من مماتهم قد حل، وحُشر الناس، واندكت الجبال، وجاء أوان الحساب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والخلود الذى لا موت بعده فإما نعيم مقيم وإما عذاب أبدى.

قال: إن بدنى يقشعر وأنا أتفكر فى هذه الأمور.

قلت: فتعال إلى مسيلمة وانظر وقل لى: إذا سمعت قوله «الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل» فماذا يرد على نفسك وعقلك؟

قال: إنه سوف يحدثنى عن خطب عظيم أو هائل أو انقلاب وكارثة. وإن كنت لا أعلم ما هذا الانقلاب أو الكارثة التى يمكن أن تكون فى الفيل؟!

قلت: فربما قلت لنفسك: لعله سيأتى فى الفيل بما لا أدركه. فانظر إليه بعد هذه المقدمة المروعة ماذا قال؟ أشعرك أنك مقدم على نبأ يتزلزل به كيانك حتى ليتوحد عقلك وذهنك مع نفسك فى نقطة واحدة تهيئاً له، ثم إذا هو يهبط بك من هذا الهول العظيم إلى تافه الأمور وهزل الكلام؛ فيصف لك الفيل. ويا ليته أتى بمعنى جديد أو عبرة فى طريقة عيشه أو حكمة فى صبره أو حدة ذاكرته.

قال ضاحكاً: ما أرى إلا أنه وصف ذيله ومشفره. ربما كانت له فى ذلك حكمة سامية لم تصل إلى علمنا بعد!

قلت: فكأنه وضعك فى طائرة وجعلك تستشرف الآفاق والتحليق فى العلى ثم بدلاً من أن يصعد بك خسف بك وبها. فقل لى بالله عليك: إذا ذهب بضعة من تلاميذ المدارس إلى حديقة الحيوان ورأوا الفيل فطلبت منهم وصفه، أكان يقصر وصفهم عن وصف مسيلمة شيئاً؟! فالذنب هو الذنب والمشفر هو المشفر.

قال: فكيف يقول رجل مثل هذا الكلام ويرجو أن يصدقه الناس ويتابعوه؟

قلت: ومن أدراك أنه كان يريد منهم تصديقه؟ فإنه يعلم وهم يعلمون أنه كذاب، وما تجرأ إلا بعصبية قومه الجاهلية له، لا رضاهم ولا اقتناعهم بسخفه هذا. أما ترى أن طلحة النمرى دخل عليه وسمع كلامه فلم يحتمل وهو الرجل الفصيح العربى البليغ هذا السخف حين قرنه بالقرآن - رغم متابعته لمسيلمة عصبية وأنفة - فقال له: أشهد أنك كاذب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!

قلت: ولا تدرى لماذا أولع مسيلمة بالحيوانات والدواب فجعل جل قرآنه المزعوم فيها وفى أوصافها. ويبدو أنه لم يجد شيئاً يصح فيه المعنى وإن كان تافهاً ويواتيه عنده القول وإن كان سخيفاً إلا الحيوانات والدواب.

قال: فهل قال فى حيوانات أخرى غير الفيل؟

قلت: الضفدعة!

قال ضاحكاً: الضفدعة؟!

قلت: نعم الضفدعة. «يا ضفدع بنت ضفدعين نقى ما تنقين لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين».

قال: لا أراه قال شيئاً يربو على كلامه فى الفيل؛ فليس فى كلامه معنى جميل ولا حكمة سامية ولا عبرة تؤخذ ولا إشارة إلى بديع يُتأمل فيه. وما أرى فيه إلا السجع فقط.

قلت: نعم السجع فقط. أو إن شئت الدقة الموسيقا التى رآها تسلب أذن العربى منه وتغزو نفسه رغماً عنه فأراد تقليدها، فوضع كل عقله ولسانه فيها فأذهله ذلك عن بلاغة المعنى وجزالة البيان وائتلاف موسيقا النظم مع الغرض منه.

ولو أنه وجد بلاغة المعنى وفصاحة البيان لضاع منه الإيقاع وفقد الموسيقا. فهذه خصيصة القرآن وحده.

قال: يبدو أن انغام الإيقاع القرآنى سلبت لُبه وجذبت عقله ونفسه إليها حتى لم يعد يدرك غثاثة كلامه وسماجته.

قلت: والأدل على عجزه أنه حين أراد محاكاة موسيقا القرآن كان آخر ما وصلت إليه قدرته متابعة الفاصلة فى الياء والنون دون أن يفطن إلى مصدر الموسيقا الداخلية التى تنبعث من نظم حروف القرآن وكلماته، فينتقل اللسان من صوت إلى صوت فى تناسق بديع، ومن مخرج حرف إلى آخر فى سهولة ويسر. فاقرأ ما قاله بصوت عال لترى.

قال: يا ضفدع بنت ضفدعين. ثم سكت وقال: إنى لا أستطيع نطق هذه الحروف إلا بصعوبة وأحس لسانى يتعثر ويكاد يشتبك ويدخل الحروف بعضها فى بعض خاصة ضفدع هذه التى تخرج دالها كالضاد لتزيد الطين بلة فتصبح الجملة كلها ضادات.

على أن هذا عجيب! فإن ضفدع هذه موجودة فى القرآن.

قلت: لا. وهذا هو إعجاز القرآن والفرق بينه وبين سخافة مسيلمة. ففى القرآن ضفادع لا ضفدع.

قال: وما الفرق بينهما؟

قلت: الفرق بينهما هو ألف المد هذه التى تفصل بين طرفى الكلمة فهى سر إيثار القرآن للجمع على المفرد، فهى بمثابة المهلة التى يلتقط اللسان فيها نفسه ويجد فسحة يتحرك فيها ويستريح فى الانتقال بين الحروف وبدونها - كما فعل مسيلمة - يضيق اللسان ويصيبه القلق والعثار وهو ينتقل بين هذه الحروف المتتالية القريبة المخارج حتى يكاد يدخل أحدها فى الآخر، فلا يمكن قراءتها إلا بتمهل شديد يفصل بين حروفها فصلاً واضحاً يتمهل فيه اللسان ويأخذ راحته.

قال: إن كلامك لممتع! ومع ذلك ففيه عسر وأشياء لا أستطيع هضمها.

فما هى هذه المخارج المتوالية التى تتحدث عنها؟

قلت: الأمر يسر لا عسر فيه. فالضاد تخرج من بين جانب اللسان من أقصاه إلى أدناه وبين ما يقابل ذلك من الأضراس العليا، والفاء تخرج من الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، والدال ما بين طرف اللسان وبين أصول الثنايا العليا.

قال : أظن الأمر أيسر الآن قليلاً . فهذه حروف تكاد تدور مخارجها كلها بين طرف اللسان والأسنان العليا .

قلت : ولذلك يحتنق اللسان فى حركته فيها وهو مقيد بضيق المساحة التى يتحرك فيها . فإذا ترك مخرج الضاد إلى الفاء ثم أراد الانتقال إلى الدال عاد إلى الضاد التى ألفها ولم يكد يتركها، تماما كالمرء يُطلب منه أن يدور حول نفسه فى دائرة لا تتعدى اتساع رجليه فلا يمكنه إلا أن يتعثر ويتخبط ويقع، ولا يخرجه من هذا التعثر والتخبط إلا توسيع الدائرة الذى هو ألف المد فى القرآن، والتى لم يفطن لسرها مسيلمة .

قلت مبتسماً : ها! أيبقى فى نفسك الآن شك فى أن هذه المعارضات إنما كانت سخفاً إذا وضعت بجوار القرآن كانت كمن يريد معارضة الشمس بعود كبريت؟

هز رأسه موافقاً فقلت : والأهم هل ما زال عندك شك أو تخالط نفسك ريبة فى أن القرآن معجزة إلهية قصرت عنها طاقة العرب أجمعين وهم أهل البيان وأرباب الكلام مع تحفزهم وشديد رغبتهم ودؤوب محاولتهم؟

قال فى هدوء : لا أخفيك أنى الآن أقرب لأن أصدق بإعجاز القرآن وأنه وحى إلهى ومعجزة من السماء .

ولكن .....

قلت : أقرب؟ ..... ولكن؟! ماذا تخفى وتخبئ؟

ازدادت ابتسامته اتساعاً وقال : لا تكن سئ الظن هكذا! فإنى لا أخفى ولا أخبئ شيئاً، وإنما أرى أننا سرنا مسيرة طويلة ممتعة حتى أشرفنا على تخوم الإعجاز ولما ندخل فيه، فأنا الآن أراه من بعيد وأريد أن أدخل وأسير فيه بنفسى .

أمسكت كتفيه بين يدى وقلت : فإذاً سندخل فيه ونسير معاً .

فوضع كفه فى كفى ونهضنا معاً .

* * *